محاضرات في علم الحديث (علم الدراية)

(أ.م.د. حكمت جارح صبر الرحمه)

المصادر

١ـ البداية في علم الدراية، للشهيد الثاني، زين الدين بن علي العاملي (ت:٩٦٦هـ)، وهو أول مصنف شيعي في علم الدراية وصل إلينا.

٢ ـ الرعاية في علم الدراية، للمؤلف نفسه، وهو شرح لكتابه البداية.

٣ـ أصول الحديث للدكتور عبد الهادي الفضلي.

٤ـ أصول الحديث للشيخ جعفر السبحاني.

٥ـ دروس في علم الدراية للشيخ أكرم بركات.

٦ـ مقدمة ابن الصلاح (معرفة أنواع علوم الحديث) لابن الصلاح الحلبي (ت: ٦٣٤هـ).

٧ـ الوسيط في معرفة علوم الحديث لمحمد أبو شهبة (ت: ١٤٠٣هـ).

المحاضرة الأولى

وهي تتضمن عدّة مباحث:

أولا: تسمية العلم:

أطلق على هذا العلم عدّة تسميات، من أشهرها تسميته بـ:

ـ علم الحديث.

ـ دراية الحديث.

ـ مصطلح الحديث.

ـ قواعد الحديث.

ـ أصول الحديث.

وكلّها تعني معنى واحداً، إذ كلّها تعني مجموعة القواعد الكلية أو الأصول العامّة التي تنضوي تحت عنوان واحد هو اسم العلم الذي تؤلفه، وهو هنا علم الحديث.

نعم، قد يثار التساؤل حول تسميته بـ (مصطلح الحديث)، والمصطلح ـ كما هو معروف ـ من العلم، وليس هو كل العلم، ولكن عند معرفتنا لأصل التسمية بهذا الاسم من ناحية تاريخية سوف نرى أنّ هناك وجها علمياً لهذه التسمية، وذلك أنّ اسم (مصطلح) هنا

أطلق على (أقسام الحديث) أوّلا، ولكن لكثرتها، كالصحيح والضعيف والحسن والموثق والمعلل والمنقطع والمعضل والمرفوع والمرسل و... فكأنها لهذه الكثرة الكاثرة إذا قيست بالمعلومات الأخرى في هذا العلم هي كل العلم، ثم تجوزوا فيها فسموا بها العلم كله، فقالوا (مصطلح الحديث)، وهم يريدون به (علم الحديث) من باب تسمية الكل باسم الجزء.

وقد يعبر عنه فيقال (علم أصول الحديث) أو يقال (علم قواعد الحديث)، إلا أنه قد يشكل على قولنا (علم دراية الحديث) بما حاصله، وهو أنّ (الدراية) إذا كانت ترادف (العلم) يكون التركيب الإضافي المذكور من نوع إضافة الشيء إلى نفسه، وهو ممتنع لاشتراط التغاير بين المضاف، والمضاف إليه. وأجيب عن هذا الاشكال بأن لفظ (الدراية) – هنا – اسم لهذا العلم ولذلك ساغ بعد صيرورته عَلَمَاً لهذا العلم إضافة العلم إليه.

هذا وإنّ الأبرز والأشهر من بين هذه الأسماء هو علم الدراية.

ثانياً: تعريف علم الدراية:

الدراية في اللغة بمعنى العلم والاطلاع، ولعلّها أخص من مطلق العلم، وهي عبارة عن العلم بدقّة وإمعان.

وأمّا في الاصطلاح:

١ـ فقد عرفه الشهيد الثاني (المتوفى سنة ٩٦٦هـ) في كتابه الرعاية (وهو أول كتاب وصل إلينا في هذا العلم) بأنّه: (علم يبحث فيه عن متن الحديث، وطرقه، من صحيحها وسقيمها وعليلها، وما يحتاج إليه ليعرف المقبول منه والمردود).

٢ـ ولعل ثاني تعريف لهذا العلم وصل إلينا هو تعريف الشيخ البهائي (المتوفى سنة ١٠٣٠ هـ) في كتابه الموسوم بـ (الوجيزة)، وهو قوله: (علم يبحث فيه عن سند الحديث، ومتنه، وكيفية تحمله، وآداب نقله). وقد اعتمد هذين التعريفين كل من تأخر عنهما، فنقلهما بعضهم نقلا فقط، وبعضهم يزيد تعليقة عليهما أو شرحاً لهما، وبعضهم بطرح اشكال عليهما.

وعند التأمّل في هذين التعريفين سنجد أنّ الشهيد الثاني ذيّله بعبارة: (ليعرف المقبول منه والمردود)، ولم يرد ذلك في تعريف الشيخ البهائي، وكذلك فالشيخ البهائي ذيّل تعريفه بعبارة: (وكيفيّة تحمله وآداب نقله)، ولم يرد ذلك في تعريف الشهيد الثاني.

ويمكن القول إنّ الشهيد الثاني قد أضاف غاية العلم إلى التعريف، والغاية ليست من رسم التعريف فلا تعدّ ضرورية، وكذلك فإنّ إضافة الشيخ البهائي يمكن إرجاعها إلى البحث عن السند والمتن، مما يجعل التعريف الأول حاوياً على العناصر الأساسية التي تشكل محور علم الدراية، وإنْ كان الأولى إضافة ما ذكره الشيخ البهائي.

ثالثاً: موضوع علم الدراية:

إنّ موضوع علم الدراية هو السند والمتن، فإنّ موضوع كل علم هو ما يبحث فيه عن عوارضه وحالاته الطارئة عليه، والمبحوث عنه هنا هو عوارض السند والمتن وأوصافهما، ككون الحديث صحيحاً أو حسناً أو موثقاً أو مسنداً أو منقطعاً، فهذه حالات تطرأ على السند، وككون الحديث مضطرباً أو محكماً أو متشابهاً، فهذه حالات تطرأ على المتن.

وممّا تقدّم يظهر أنّ ما ورد في بداية الدراية وغيره، من أن موضوع علم الدراية هو الراوي والمروي، لا يمكن القبول به؛ فإنّ الراوي يطلق على آحاد رجال السند كزيد وعمرو، وهو موضوع علم الرجال دون الدراية، وبعبارة أخرى فإنّ علم الرجال يبحث عن آحاد رواة السند على وجه التفصيل جرحاً وتعديلاً، ووثاقة وضعفاً، فيقال هذا الراوي ثقة وهذا ضعيف وهكذا، وهذا بخلاف علم الدراية فإنّه يبحث عن الأحوال الطارئة على الحديث باعتبار مجموع السند أو المتن، فيقال إنّ هذا حديث صحيح، أو إسناده صحيح، وهكذا.

وممّا تقدّم يظهر أيضاً أنّ ما قيل من أنّ السند فقط هو موضوع علم الدراية، أو أنّ المتن فقط هو موضوع علم الدراية، لا يمكن الركون إليه أيضاً.

رابعاً: غاية علم الدراية:

إنّ الغاية الاساسية من هذا العلم هي تمييز الأحاديث المقبولة ليعمل بها، والاحاديث المردودة ليجتب عنها.

وكذلك فإنّ كلمات علمائنا المتقدمين مشحونة بالكثير من هذه الاصطلاحات فكان لابد من معرفتها مقدّمة لفهم كلماتهم، ولذا قال العلامة المامقاني: «إن غاية هذا العلم هو معرفة الاصطلاحات المتوقف عليها معرفة كلمات الأصحاب، واستنباط الأحكام، وتميز المقبول من الأخبار ليعمل به، والمردود ليجتنب عنه».

خامساً: تاريخ علم الدراية

إنّ أقدم وثيقة علمية في الفكر الحديثي هي ما رواه الشيخ الكليني في كتاب (الكافي): عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن حماد بن عيسى عن اليماني عن أبان بن أبي عياش عن سليم بن قيس الهلالي: قال: قلت لأمير المؤمنين (ع): إني سمعت من سلمان والمقداد وأبي ذر شيئاً من تفسير القرآن، وأحاديث عن نبي الله غير ما في أيدي الناس، ثم سمعت منك تصديق ما سمعت منهم، ورأيت في أيدي الناس أشياء كثيرة من تفسير القرآن ومن

الأحاديث عن نبي الله (ص)، أنتم تخالفونهم فيها وتزعمون أنّ ذلك كله باطل، أفترى الناس يكذبون على رسول الله متعمدين ويفسرون القرآن بآرائهم ؟ ! . قال: فأقبل (ع) علي فقال: قد سألت فافهم الجواب: إن في أيدي الناس حقا وباطلا، وصدقا وكذبا، وناسخا ومنسوخا، وعاما وخاصا، ومحكما ومتشابها، وحفظاً ووهماً، وقد كذب على رسول الله (ص) على عهده حتى قام خطيبا فقال: (أيها الناس قد كثرت علي الكذابة، فمن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار)، ثم كذب عليه من بعده. وإنما أتاكم الحديث من أربعة ليس لهم خامس:

١ـ رجل منافق يظهر الإيمان، متصنع بالإسلام، لا يتأثم ولا يتحرج أن يكذب على رسول الله (ص) متعمدا . فلو علم الناس أنه منافق كذاب لم يقبلوا منه ولم يصدقوه، ولكنهم قالوا هذا قد صحب رسول الله (ص) ورآه وسمع منه فيأخذون عنه وهم لا يعرفون حاله، وقد أخبره الله عن المنافقين بما أخبره ووصفهم بما وصفهم فقال تعالى : (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقلوا تسمع لقولهم)، ثم بقوا بعده (ص) فتقربوا إلى أئمة الضلالة والدعاة إلى النار بالزور والكذب والبهتان، فوفوهم الأعمال، وحملوهم على رقاب الناس، وأكلوا بهم الدنيا، وإنّما الناس مع الملوك والدنيا إلا من عصم الله . . فهذا أحد الأربعة .

٢ـ ورجل سمع من رسول الله (ص) شيئا لم يحمله على وجهه، ووهم فيه، ولم يتعمد كذبا، فهو في يده، يقول به، ويعمل به، ويرويه فيقول : أنا سمعته من رسول الله (ص) . فلو علم المسلمون أنه وهم لم يقبلوه، لو علم هو أنه وهم لرفضه.

٣ـ ورجل ثالث سمع من رسول الله (ص) شيئا أمر به، ثم نهى عنه، وهو لا يعلم، أو سمعه ينهى عن شئ، ثم أمر به وهو لا يعلم، فحفظ منسوخه ولم يحفظ الناسخ . فلو علم أنه منسوخ لرفضه ولو علم المسلمون إذ سمعوه منه أنه منسوخ لرفضوه.

٤ـ وآخر رابع لم يكذب على رسول الله (ص)، مبغض للكذب خوفا من الله، وتعظيما لرسوله (ص)، لم ينسه، بل حفظ ما سمع على وجهه، فجاء به كما سمع، لم يزد فيه ولم ينقص، وعلم الناسخ والمنسوخ، فعمل بالناسخ ورفض المنسوخ، فإن أمر النبي (ص) مثل القرآن، ناسخ ومنسوخ، وخاص وعام، ومحكم ومتشابه، قد كان يكون من رسول الله (ص) الكلام له وجهان : كلام عام وكلام خاص مثل القرآن، وقال الله تعالى في كتابه : (ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)، فيشتبه على من لا يعرف ولم يدر عنى الله به ورسوله (ص) . ليس كل أصحاب رسول الله (ص) كان يسأله عن الشئ فيفهم، وكان منهم من يسأله ولا يستفهمه، حتى إن كانوا ليحبون أن يجئ الأعرابي والطاري فيسال رسول الله (ص) حتى يسمعوا).

وقد كانت هذه الرواية الشريفة المنطلق الواعي لتدارس الفكر الحديثي وتوالده .

وهناك روايات أخرى وردت عن أهل البيت تتضمن كيفية التعامل مع المرويات وتعدّ من الوثائق التي تكشف عن بدايات علم الدراية عند الشيعة الإمامية.

وقد استمر تداول علم الدراية عند علماء الشيعة في مؤلفاتهم المختلفة فكانوا يطلقون على بعض الاحاديث بأنّه صحيح أو ضعيف أو متواتر وغير ذلك ممّا يتعلق بعلم الدراية.

ثمّ ظهرت تأليفات مستقلة في علم الدراية، ومن أهمّ هذه المؤلفات:

١ـ لعل أقدم مؤلف إمامي في هذا العلم هو كتاب (شرح أصول دراية الحديث) للسيد علي بن عبد الكريم بن عبد الحميد النجفي النيلي تلميذ العلامة الحلي، من علماء القرن الثامن الهجري.

٢ـ وفي القرن العاشر الهجري كانت مؤلفات الشيخ زين الدين العاملي الشهيد الثاني (ت: ٩٦٦ هـ)، والتي بها استقر تدوين هذا العلم، وعنها نهل من جاء بعده، ومن أشهر مؤلفاته:

أـ البداية في علم الدراية، وهو أول مصنف شيعي في علم الدراية وصل إلينا.

بـ ـ الرعاية في علم الدراية، وهو شرح لكتابه البداية.

جـ ـ غنية القاصدين في معرفة اصطلاحات المحدثين، (ألمح إليه في خاتمة شرح البداية، وقال: من أراد الاستقصاء فيها مع ذكر الأمثلة الموضحة لمطالبه فعليه بكتابنا (غنية القاصدين في معرفة اصطلاحات المحدثين) فإنه قد بلغ في ذلك الغاية).

٤ـ وصول الأخبار إلى أصول الأخبار، للشيخ حسين بن عبد الصمد العاملي (ت:٩٨٤هـ).

٥ ـ الوجيزة في علم الدراية، للشيخ بهاء الدين العاملي (ت ١٠٣٠ هـ).

٦ ـ الرواشح السماوية، للسيد الداماد (ت ١٠٤١ هـ).

٧ ـ جامع المقال فيما يتعلق بأحوال الحديث والرجال، للشيخ فخر الدين الطريحي (ت ١٠٨٥ هـ).

٨ ـ مقباس الهداية في علم الدراية، الشيخ عبد الله المامقاني (ت ١٣٥١ هـ).

٩ ـ نهاية الدراية (شرح وجيزة البهائي) للسيد حسن الصدر (ت ١٣٥٤ هـ).

١٠ـ تلخيص مقباس الهداية، علي أكبر غفاري.

١١ـ أصول الحديث وأحكامه في علم الدراية، الشيخ جعفر السبحاني.

١٢ـ أصول الحديث، د. عبد الهادي الفضلي.

١٣ـ دروس في علم الدراية، د. رضا مؤدب.

١٤ـ علم الدراية للشيخ أكرم بركات.